خطوط عامة فى تطوير التعليم الإعدادى

دكتور إسماعيل صبرى عبد الله

١ ـ من المتفق عليه دولياً أن التعليم إلزامى حتى سن الخامسة عشرة. ففى عصرنا هذا لم يعد أحد يسلم بأن معرفة القراءة والكتابة تكفى لتأهيل الشباب لدخول سوق العمالة. حتى البنك الدولى حين يحارب الإنفاق الحكومى على التعليم بالمجان يستثنى مرحلة التعليم الأساسى لتدعم من الدولة وهيئات الحكم المحلى ليس فقط فى تحمل نفقات الدراسة بالمعنى الضيق، ولكن أيضاً ما يجب أن يواكب الدراسة بهدف تنمية الأطفال بدنياً وذهنياً (مثل الوجبة الغذائية، الكشف الطبى الدورى والألعاب الرياضية وممارسة الهوايات الفنية أو العملية). وذلك كله فى الحد الأدنى عند قياس تقدم الشعوب باحتياجات العصر. وقد أصبح التقدم يقاس بنسبة من أتموا التعليم الثانوى بشعبه وأقسامه المختلفة إلى عدد الشريحة العمرية (١٥ ـ ١٨ سنة) من الذكور والإناث. ويعد مؤشر عدد التلاميذ لكل معلم مقياساً غير مباشر لنوعية التعليم ومستواه. ونقصد هنا المعلمين المشتغلين فعلاً بالتدريس وليس كل المقيدين فى نقابة المعلمين أو العاملين فى وزارة التربية والتعليم. وهذا المؤشر فى الدول المتقدمة يتراوح ما بين ١٥و٢٤ تلميذا لكل معلم.

٢ – ولكن التعليم الإعدادى لا يعد فقط للدخول فى التعليم الثانوى. فهناك نسبة لا يستهان بها تتجه فوراً إلى سوق العمل ويمكن الكشف عن هذه النسبة بمقارنة عدد من دخلوا التعليم الثانوى بعد أن أتموا التعليم الإعدادى. ولم أعثر على سلسلة زمنية من الإحصاءات التى لابد منها لتتبع جيل واحد من أولى سنوات الدراسة عبر التعليم الأساسى والثانوى ثم العالى. ولكن شاهد الحال يوحى بنسبة عالية. ولهذا لا يكفى أن يحكم «الإعداد» أولئك الذين سيستمرون فى صعود سلم التعليم، ولكن أيضاً أولئك الذين يدخلون مباشرة سوق العمل. فالتعليم الإعدادى المكمل لمرحلة التعليم الأساسى هو الجذع المشترك الذى يؤهل التلميذ للاحتمالين: طلب العمل أو طلب العلم.

٣ ـ وتظهر عندنا ضرورة مد فترة الإلزام إلى خمس عشرة سنة من حقيقة أن الطفل الذى ينهى المرحلة الابتدائية فى سن ١٢ سنة يفترض أنه لا ينضم إلى أعداد عمل الأطفال الموجودة فى المجتمع. وحظر تشغيل الأطفال عملية صعبة التنفيذ، كما هو معروف، ذلك أن من يدفع بالأطفال إلى العمل بأجر بسيط واقع أنهم بالضرورة من الأسر الفقيرة التى تحتاج فى قوتها إلى ذلك الأجر مهما كان متواضعاً. وكما يقول الاقتصاديون يشجع العرض على

زيادة الطلب، لأن من يشغل طفلاً يوفر نصف أو ثلثى العامل البالغ. وعلى أية حال، إذا نجحنا فى منع عمالة الأطفال يجب أن نتساءل وماذا نصنع بمن سنهم ١٢ و١٥ سنة؟ أنتركهم يهيمون ويتسكعون معرضين للانحراف والفساد أمام مدرسة لن يدخلوها وعمل محظور عليهم.

ومن ناحية أخرى سيكون لهذا الوقت الفارغ أثره الفعال فى نسيان الطفل ماتعلمه فى المرحلة الابتدائية ويلحق بالمتسربين، ومن عجزوا عن إتمام تلك المرحلة. وبهذا يحرم الطفل من وسائل التقدم والترقى ويضيع فى الوقت ذاته ما استثمره المجتمع فى الست سنوات الأولى من التعليم.

٤ ـ من المعروف أيضاً أن الطفل خلال تلك السنوات الثلاث يمر بأزمة بيولوجية هى المراهقة. وهى تصطحب بحالات من القلق والتردد. وقد يهمل الطفل دراسته، ويمكن على العكس أن يزيد إقباله عليها. وهذا ما يوجب أن تشمل الصحة المدرسية بعض الأطباء النفسيين لمساعدة المدرسة والأسرة على تفهم تلك الأزمة وحسن التعامل معها. ومن المهم أن ندرك جميعاً أن المراهقة أسوأ فترة لاختيار المستقبل الذى يصبو إليه الطفل. وكلنا يمكن أن نتذكر زملاء الدراسة النابهين فى المدرسة الثانوية والخاملين فى التعليم الجامعى. وكذلك العكس صحيح فما أكثر من تفوقوا في الجامعة بعد أن كانوا عاديين فى المرحلة الثانوية. ولذلك لايحسن فرض أى نوع من التخصص فى المرحلة الإعدادية. ويقول المعنيون بدراسة التنمية البشرية إن هدفها يجب أن يكون تعظيم عدد الفرص المتاحة أمام الإنسان لاختيار واحدة منها أو أكثر. ونرتب على ذلك تبنى البديل للتخصص وهو وجود عدد معقول من المواد الاختيارية. فنحن هنا بصدد استكمال التكوين العام الأدنى الذى لابد من توافره لدى كل الأطفال من سيواصل الدراسة، ومن سيعمل بأجر سواء بسواء. وقد قلنا فى مؤتمر تطوير التعليم الابتدائى أن المدرسة تشارك الأسرة فى إتاحة الفرص للطفل لتنمية كل ملكاته العقلية والجسدية والفنية. وأود أن أضيف هنا أن النجاح فى مراحل التعليم المتوالية محدود بين أمور أخرى بصحة الجسد، كما أن العمل اليدوى يحتاج إلى إعمال العقل. وإلى جانب الرياضة البدنية والموسيقى والمسرح يجب تمكين الطفل من تطوير مهاراته اليدوية. إن وصول شاب إلى الجامعة وهو لم يصنع بيده شيئاً طوال حياته أمر ضاربه وبالمجتمع. ومن ثم يكون الاهتمام بالهوايات التى يقبل عليها الطفل ويختار منها ما يرضيه.

٥ ـ وفى المرحلة الإعدادية يجب أن يتمكن الطفل من تجاوز مجتمع الطفل والمدرسة إلى نظرة أشمل لمجتمع قريته أو حيه إلى المجتمع المصرى فى إجماله، تبين له حقوقه وحقوق الآخرين ومسئولية الجميع إزاء المجتمع، أى ما عليهم من واجبات تقابل تلك الحقوق. وفى هذه المرحلة تنمو عادة التفرقة بين البنات والبنين وما تعنيه من تعالى الذكر وتدنية الأنثى. وهنا مفتاح أساسى لوضع المرأة فى المجتمع، فإذا

أتحنا للجنسين نفس التعليم ونفس الألعاب الرياضية ونفس الهوايات الفنية واليدوية نشأ لنا جيل أكثر استعداداً للمساواة بين الجنسين، ومن الثابت علمياً أن الثقافة التى يتلقاها الطفل تعمق باستمرار تمييز الذكر على الأنثى بدون أى أساس بيولوجى. وإذا كنا بصدد التكوين الأساسى للمواطن الصالح حقاً فإن علينا تحقيق ذلك فى المدرسة التى نتحدث عنها الآن والتى يمكن لها أن تكمل ما أهملته الأسرة أو تصحيح ما قد يتردد فى الأسرة وحولها من مفاهيم خاطئة.

٦ ـ وبشئ من التبسيط يمكن أن نرى للتعليم الإعدادى عمودين: العقل والجسد. وبالتالى يوفر للتلاميذ ممارسة الرياضة البدنية. وهى فى بلدان كثيرة مادة إجبارية لا يعفى منها أحد. والأداة الأولى لتنمية القدرات العقلية هى العلوم الرياضية والطبيعية والحيوية. وأعتقد أن محتوى المادة التعليمية يجب أن يخضع لدراسة متأنية تهدف إلى نوع من التوازن بين تلك العلوم وغيرها من مواد الدراسة. ويتأثر العقل والجسد بنقص التغذية وإهمال الصحة العامة وما يتعرض له الطفل من أمراض. وأود أن أشير هنا مرة أخرى إلى أن المفارقة بين التعليم فى دول مختلفة ينحصر فى امتحان يتقدم له من هم فى سن الثالثة عشرة حيث يسألون على الرياضة والعلوم الطبيعية فقط. لأن ذلك العلم المشترك بين كل الشعوب على اختلاف حضاراتها أو أنساقها القيمية.

٧ ـ ومما يجب أن يكتسبه التلميذ فى المرحلة الإعدادية حب الإطلاع والرغبة فى التعلم. وهنا مكان اكتساب الرغبة فى القراءة الحرة. ومن ثم تجب العناية بمكتبة المدرسة وتشجيع التلاميذ على التردد عليها، وكذلك تمكينهم من القراءة أثناء الأجازة الصيفية إما بفتح المكتبة أو بإعارة الكتب، ولا أظن أن السيد الوزير سيعترض على قولى إن الطفل يولد بمواهب متعددة متطلعاً لمعرفة كل ما يحيط به ويستطيع بسهولة تعلم لغة ثانية وهو فى سن السادسة أو السابعة بسهولة كبيرة. وأن الأسرة ثم المدرسة تدفعه إلى الاهتمام بأمور معينة والانصراف عما عداها. وهى بذلك تضيق الخيارات المستقبلية أمامه. ويدخل فى الإطار نفسه تعود التلاميذ على أصول المناقشة وآدابها وكيف يختلف اناس دون أن يمزقوا بعضهم بعضاً. لقد كان لدينا فى صبانا جمعية مناظرات باللغة العربية السليمة لا بالعامية وفى الثانوى وجدنا، كذلك جمعية باللغة الإنجليزية. هل نعود لهذا الوضع أم أن ثمة أدوات أكثر نفعاً وأبعد أثراً؟ وفى مستوى الثقافة العامة لابد من أن يكتشف التلاميذ فى سن مبكرة أهمية زيارة المتاحف الأثرية، وكذلك متحف الفن الحديث. فهذا ما يزيد تعلقهم بوطنهم وينمى فى الوقت ذاته تذوق الفنون التشكيلية وبصفة عامة الإحساس بالجمال كقيمة إنسانية أصيلة.

هذه بعض خطوط عامة أراها جوهرية فى تطوير التعليم الإعدادى. وهى بالقطع لا تحيط بجميع أموره. وإن هى إلا مساهمة متواضعة فى هذا الحوار الخصب.